العرب
الخميس 2021/03/18
السنة 43 العدد 12003

فنان سوري يغيّب التفاصيل تحت فظاعة المشهد العام

ثائر هلال يشكّل من التجريد تراجيديا بصرية ترثي العالم والإنسان

أكثر ما يشوّق في الكتابة عن أي فنان تشكيلي عربي يأتي عندما تعثر له على لوحة جديدة، هي بمثابة قفزة فنية كبيرة نحو أفق جديد يلوح في مسيرته الفنية. وينطبق هذا الكلام على لوحة جديدة من لوحات الفنان التشكيلي السوري ثائر هلال، أو هي على الأقل، آخر ما نشره على صفحته الفيسبوكية.

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

ليس النص الفني التجريدي بظاهرة جديدة في العالم العربي وقد تبنى عدد كبير من الفنانين العرب هذا النوع من التعبير الفني. منهم من كان مجرد مُستعيد لنصوص فنانين غربيين مشهورين ومنهم من قدّم تجربة فريدة، وذلك لخاصيتين: الأولى هي لناحية كيفية استخدام الألوان والمواد الإضافية. أمّا الخاصية الثانية والأهم فهي التي جاءت على خلفية فلسفية خاصة بالفنان دون غيره من الفنانين.

وعندما نقول "فلسفة خاصة" لا نقصد المعنى العام من التعبير، أي ما قد يرادف تعبير "توجه فكري" أو تعبير "مضامين العمل وعناوينه"، بل نقصد بالتحديد وبشكل حرفي الخلفية "الفلسفية" التي تأسّست عليها الأعمال وتجلّت أكثر فأكثر عبر تسلسلها الزمني.

قد يكون ذلك جاء لا شعوريا، وعلى غفلة تامة من الفنان، أو ربما جاء نتيجة إحساس مقرون بتخطيط تولى ثائر هلال عملية شبك أواصره تحت تأثيرات شخصية ومؤثرات مُتعلقة بمحيطه المجتمعي القريب.

على الأرجح إن الفنان السوري منتم إلى النوع الثاني من الفنانين. النوعَ الذي نما نصه الفني بتوجيهه، ولكن أيضا بشكل طبيعي ولصيق بشخصيته وتركيبته النفسية الخاصة. وسيلحظ كل متابع لتطوّر أعماله الفنية كيف أصبح فن هلال فلسفة مرئية انطلقت في بداياتها من رسم الوحدات والجزئيات والتسطيح اللوني الذي لا يقيم للكثافة اللونية بأي أهمية نحو كُلية المشهد والبنيان المؤثر "عاطفيا" بكتلته وتضاريسه المتغارسة ووحدة منخفضاته.

لوحة تؤسّس لمرحلة جديدة في مسار هلال الفني، يطغى عليها الأحمر والأسود، مع هدوء لوتيرة مراكمة الطبقات اللونية

بين الكل والجزء

بشكل عام، يُعتبر الفن التجريدي من أنصار فكرة الفن للفن وإنه ليس على الفن أن يكون مشغولا بهمّ التعبير عن فكرة ما أو تصوير لهيئات واضحة المعالم، وإن نسبيا كما هو الحال مع الفن التشكيلي. لكن هذا لا ينطبق البتة على فن هلال الذي هو تجريدي بامتياز، ولكنه مُحمّل بأفكار وكاشف لآلية التفكير الخاصة بالفنان، و"ناشر" لمشاهد عديدة هي مدنية وطبيعية وعلى امتداد مساحة وطن جريح كوطنه سوريا، وعلى وسع عالم هو عالم عربي غابت تفاصيله تحت فظاعة المشهد العام.

هنا تماما يشكّل عمل الفنان فارقة فنية/ عربية، إذ بالإمكان إحالة مجمل نصه الفني وخاصة أعماله الأخيرة (السابقة للوحة الأخيرة حتى الآن والتي نشرها على صفحته الفيسبوكية) إلى الفلسفة الـ"غيشتالتية" وهي، باختصار شديد، نظرية في علم النفس معنية بالإدراك البصري القائم على ربط مجموعة أشكال ليظهر شكل واحد وشامل مكوّن من مجموعة أشكال وجزئيات موحّدة. يلي ذلك أن الكُلّ هو أهمّ من أجزائه. وأن مجموع الأجزاء أقلّ أداء من الكلّ.

> نص الفنان هلال الجديد نما بتوجيهه، ولكن أيضا بشكل طبيعي ولصيق بشخصيته وتركيبته النفسية الخاصة

تتحوّل هذه النظرية النفسية إلى نظرية فلسفية/ فنية عند هلال. وتظهر لوحاته جامعة لتفاصيل يمكن النظر إليها على أنها قائمة في حد ذاتها على ناحية جماليتها التجريدية. لكن الفنان يأبى أن يتحالف مع أيّ جزء من لوحاته وأن يعتبره أهلا بأن يكون هو لوحة منفصلة ومستقلة.

وفي حين كانت لوحاته تنحو نحو تداخل لوني مُكثّف واستخدام هوسيّ بالورق المدعّم والمقولب تلبية لتصوير مشاهد تجريدية وتراجيدية عن وطن مأزوم رزح تحت هول الحرب وما خلفته من دمار وردم وحفر، جاءت لوحاته التالية أشبه بعُلب سحرية تحمل قطعا مرصودة على أن يُشكّل بها كُلّا مُتناسقا ومتوازنا.

جاءت أعماله ما قبل الأخيرة كاشفة عن عشق الفنان للتكرار (علّه يكون مدخلا إلى فضاء أو حقيقة جديدة) وحبه للاختزال كنوع من إلحاح تبسيطي يسكن الفنان، ويريد منه أن يوصله إلى السكينة والرضا بما وصل إليه من صيغ فنية، هي في حقيقتها كناية عن أبحاث تجارب مستمرة.

تحية خاصة

يكفي النظر إلى رسومات هلال الورقية الكثيرة التي نشرها خلال آخر السنة الماضية على صفحته الفيسبوكية، لندرك ما يعني الجزء وما هو علاقته بالكلّ بالنسبة إلى الفنان. (نشر ربما أكثر من مئة رسمة هي صور شخصية مشغولة "تجريديا" لوجوه العاملين في القطاع الصحي وبتدرجات لون واحد وهو البني)، لتكون مجرّد أجزاء شبه مُكرّرة تخدم المشهد العام المُشكّل منها، وتأتي تحت عنوان "تحية إلى عاملي القطاع الصحي".

ثم نصل إلى اللوحة الأخيرة التي نشرها الفنان على صفحته الفيسبوكية. بل لنقل بعبارة أدق، نأتي إلى "الصورة" الأخيرة التي نشرها، والتي يظهر له فيها عمل فنيّ يطغى عليه اللون الأحمر والأسود ويستوفي الشروط الفنية الخاصة بالفنان والتي أتينا على ذكرها، ولكن مع هدوء لوتيرة مراكمة الطبقات اللونية.

تفتح هذه اللوحة على ما يبدو نحو مرحلة جديدة قد يكون الفنان بصدد الدخول إليها، أمّا الآخذ إليها حتما هو فضاء المرسم المحيط باللوحة الذي ينسجم انسجاما كليا مع اللوحة حتى يكاد يكون امتدادا لها.

هل جاء دور لوحة الفنان المؤلفة من أجزاء أن تكون هي جزء من المشهد العام؟ هل هاجس التوسّع لنص فني فلسفي لم يعد يحتمل الحدود التي وضعها له الفنان ضمن إطار مهمّ اتسع ولم يزل أضيق من أن يتيح له الانتشار؟ هل يقف الفنان على عتبة الولوج إلى عالم التجهيز الفني وهو لديه ميل شديد نحو التجريب واستخدام المواد المختلفة في أعماله السابقة؟ أسئلة قد نجد إجابات عنها في المستقبل القريب.

تكرار مختزل لوضع مملّ

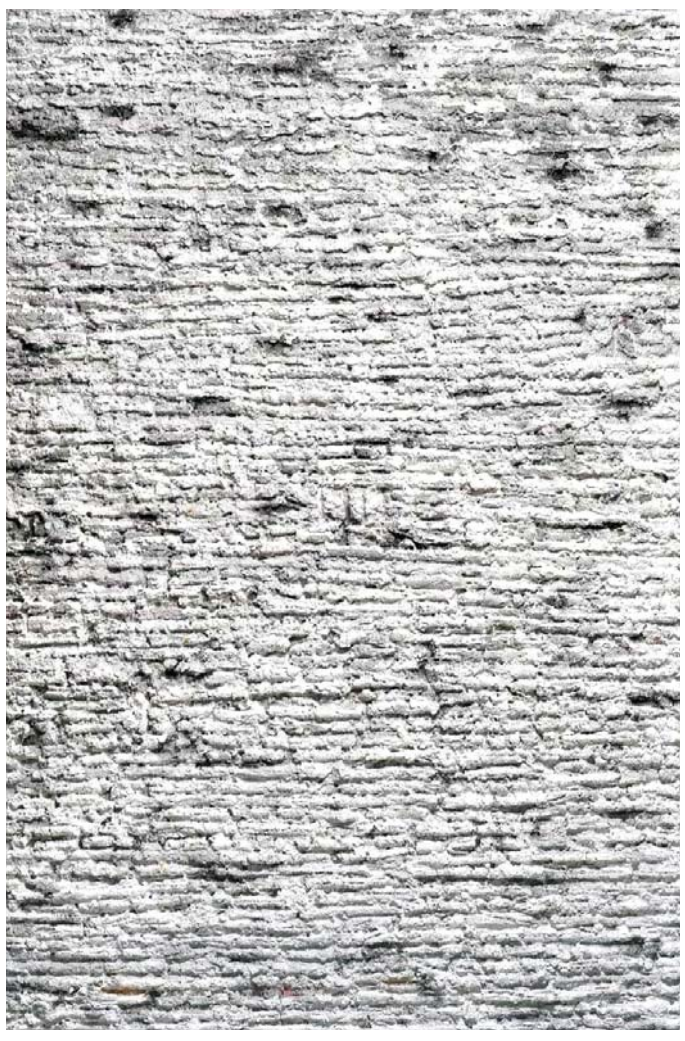

تراكم لوني يشي بفكر فلسفي خاص

البريطاني بريان فلين يجسّد الطقوس الصوفية بملامح أفريقية

حجاج سلامة

الأقصر (مصر) – طاف الفنان البريطاني بريان فلين برسومه ومنحوتاته العديد من البلدان وأقام الكثير من المعارض في مصر وإيطاليا وفرنسا والولايات المتحدة. لكن القاهرة، ومدينة الأقصر التي اختار الإقامة فيها بشكل دائم، كانا لهما النصيب الأكبر في ما أقامه من معارض للوحاته ومنحوتاته وتماثيله المسكونة بروحه الطيبة في جنوب مصر وفي أفريقيا، ووقع تحت تأثير ابتساماتهم الساحرة، وهي ابتسامات قال بأنه لم يراها إلاّ على وجوه المصريين والأفارقة.

ولأنه فنان يحمل روح درويش صوفي، فقد ارتسمت ملامح الدراويش في الكثير من رسوماته ومنحوتاته، حتى صار يعرف بـ"الفنان الدرويش"، و"فنان الدراويش"، وهو الذي ارتبط بعلاقة روحانية خاصة مع ساحة الشيخ الطيب، في البر الغربي لمدينة الأقصر التاريخية بصعيد مصر، وصار من روادها، وهي ساحة صوفية أسّسها جد الإمام الأكبر أحمد الطيب، شيخ الأزهر.

وقد صار فلين، أحد رواد الساحة وأحد دراويشها المعروفين، وربما استمد الكثير من أفكاره الصوفية، وحالة "الدروشة" التي صار مسكونا بها، من محاوراته ولقاءاته مع الطيب شيخ الأزهر، وشيوخ الطريقة الصوفية الخلوتية التي تُعدّ ساحة الشيخ الطيب، إحدى مناراتها بصعيد مصر والعالم الإسلامي.

واعتبر أنه طوال خمسة عشر عاما قضاها في ريف البر الغربي لمدينة الأقصر، ربما لم يتأثّر بشيء، كما تأثّر بالصوفية، حيث يجد نفسه في حالة ترحال وسفر روحي دائم لا ثبات فيه.

وقال إن من أجمل الأعمال الفنية لديه، وأكثرها قربا لقلبه تلك اللوحات التي يرسمها للدراويش، ولشيوخهم من رواد الطريقة الصوفية الخلوتية من شيوخ آل بيت الطيب.

امرأة تنثر نجومها في سماء الخصب

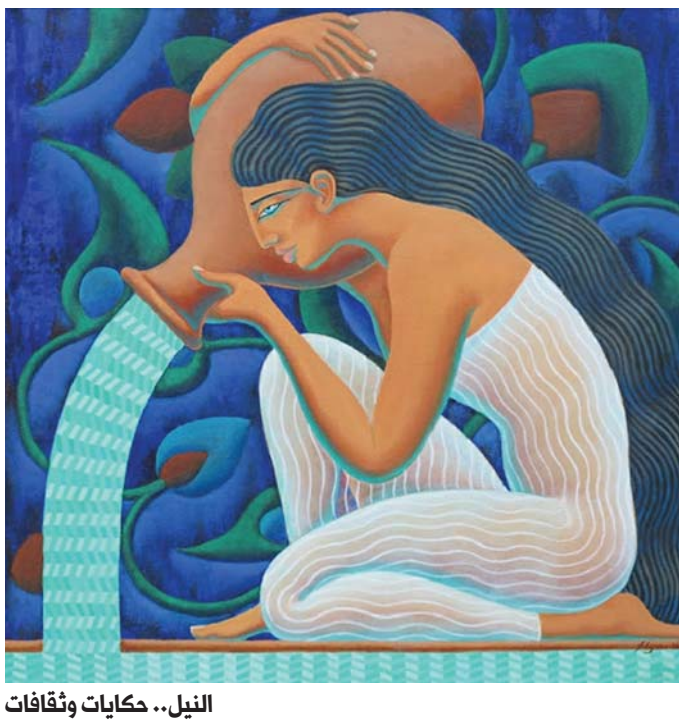

النيل.. حكايات وثقافات

وروح تلك الوجوه التي التقاها في كل مكان زاره في مصر وأفريقيا التي أحبها وأحبته ومنحته الكثير من سحرها وسحر غموض وابتسامات أهلها.

وعلى هامش مشاركته بمعرض "أثير" الذي يستضيفه حاليا غاليري "نون للفنون" غرب مدينة الأقصر الغنية بمعابد ومقابر قدماء المصريين في صعيد مصر، والذي قدّم فيه 35 لوحة ومنحوتة من أعماله، قال فلين إنه أحب الناس، وأحب أرواحهم وملامحهم التي تعدّ مصدر إلهام لكل فنان. ورأى بأن ما ينعم به من حرية في ممارسة الفنون، إنما هو جزء من شخصية الصوفي بداخله، والصوفية، تعني عنده، "الانطلاق والتحرّر في عوالم وفضاءات فسيحة".

بريان فلين

> الصوفية عندي تعني الانطلاق والتحرّر في العوالم والفضاءات الفسيحة

ومن الطريف أن الفنان التشكيلي البريطاني، الذي جذبته الصوفية، قد استطاع أن يجمع بين حبه لتلك الصوفية، ولحضارة مصر القديمة، ونجح في المزج بينهما وتقديم أعمال فنية بخطوط تشكيلية خاصة، صار يتفرّد بها من خلال رؤيته الفنية الخاصة في تناوله لتفاصيل وجوه لوحاته ومنحوتاته، وخطوطه وألوانه التي بات يمتلك قدرة فريدة على استخدامها وتوظيفها بصورة لافتة جعلت له العديد من العشاق والمتابعين لفنه في مصر وخارجه.

ويقول فلين إنه لا يؤمن بحدود ولا بمدارس ولا بخطوط ثابتة في ممارسته للفنون التشكيلية، بل يرى أن الفنون تمارس بحرية، وبلا قيود أو اشتراطات، وهو يرفض أن يلتزم بمدرسة فنية بنوعها في إنتاج أعماله التشكيلية.

وعن وجود تغيّر في نمط أعماله التشكيلية، وأنه ربما طرأ تحوّل ما على بعض تقنياته الفنية، يقول "أنا حر في ممارستي للفنون التشكيلية.. أرسم وأنحت وأجرّب وأمارس الفن كيف أشاء، وبكل حرية دون أن أتقيّد بمدرسة فنية ما"، رافضا تقديم مبرّر لما يكون قد بدا من تغيّر في أعماله خلال فترة زمنية معينة.

وحول الموضوعات والمفردات الفنية الأكثر حضورا في أعماله الفنية، يؤكّد أنه يستلهم أعماله من الطبيعة المحيطة به، ومن معالم الحضارة المصرية القديمة، التي تحيط به في كل مكان يسير فيه في مدينة الأقصر التي يتّخذ منها سكنا ومقاما له، ومن "ست"، و"نفتيس" وأرباب وربات قدماء المصريين، ومن وجوه الناس، ومن طقوس الصوفية والدراويش، الذين يلتقيهم كل يوم في مجالس الذكر والعلم والتدبُّر.

ويلفت التشكيلي البريطاني إلى أن مصر والصوفية والشرق أشياء غنية بالمفردات والصور التشكيلية الثرية

وحول تجربته الفنية في إقامة مجموعة معارض فنية، للجمهور الأوروبي، مثل العاصمة الفرنسية باريس، وفي إيطاليا، تحتوي على نتاجه الفني الذي استوحاه وأبدعه بمدينة الأقصر المصرية، حيث يقيم فيها بشكل دائم، قال بأنه حتى في تلك الأعمال الفنية التي قدّمها في معارضه الأوروبية، تأثّر فيها بالصوفية، وتناولت الكثير من صور الدراويش والمتصوفة، وأنه حرص من خلال تلك المعارض على أن يقدّم للجمهور الأوروبي ملامح من الحياة في مصر، وبعض من الملامح الصوفية التي عاصرها وصارت جزءا منه، بجانب صور لحضارة مصر القديمة، ولوجوه أفريقيا الباسمة.